

الدولة هي نفسها تنظم التمييز، وبدون الشعور بأي ندم¹

ترجمة نورالدين علوش - المغرب

*- كيف تعرف العلمانية الفرنسية ؟

العلمانية الفرنسية ، ليست لها علاقة بما تريد أن توهنا به ، من فصل للدين عن السياسة ، هي بالعكس .
إذا كان هناك استثناء " فرنسي " فهو لا يعتمد على فصل كبير ، لكن بالعكس على غموض علاقة الدين
بالسياسة ، هذا الغموض يحظى برعاية الدولة الفرنسية .

هذا النظام هو أكثر أصالة ، الذي يعتمد على الإدعاء ، بأن هناك فصل للدين عن السياسة ، وأن الدولة
لا تتدخل مبدئيا ، في الحقيقة الدولة تتدخل بدون تقديم أي تفسير وأي تبرير مهما كان . فرنسا من الدول
الأوروبية التي تهتم كثيرا بالدين ، حيث تتدخل في هذا المجال ، بمنح الأنظمة الأساسية الخاصة للجمعيات
الدينية ، للتجمعات الرهبانية ، للأسقفيات ، تخفيضات ضريبية خاصة ، وكذلك بمنح رجال الدين ضريبة
الحياة والمرض الخاصين ، وعبر مجموعة من الإجراءات الأخرى التي تستهدف ما هو ديني
يجب أن نفهم جيدا ، أن الدولة حينما تقرر أن هذا الدين أو ذاك ، يمكن أن يشكل تجمعا دينيا (رهبانيا) ،
أو ليس له الحق في هذا النظام المالي بالمزايا ، عليها أن تعطي الأسباب ، وهذه الأسباب ذات طبيعة دينية
وعقدية.

هذا يبدو مدهشا ، مجلس الدولة يناقش دائما حتى يعرف ، إذا كانت أية حركة ترجع إلى ممارسة الدين أم لا
، والحجج تدور حول نقاط مثل: الاعتقاد بالله ، احترام بعض المبادئ الدينية ، ... لا يمكن أن نرى هذا ، في
هذه المرحلة على الأقل المضحكة إلا بفرنسا ، فرنسا العلمانية !

هذا النظام ، يركز في العمق ، على نحت الديانات المقبولة التي من شأنها تدعيم الإيديولوجية الجمهورية ،
وكذلك ممثلها المحترمين .

هذا ما يفسر إرادة إنشاء هيئات ممثلة "للأديان الكبرى" مثل : المجلس الفرنسي للديانة الفرنسية . لكن ،
حذارما إن توجد هذه الهيئة حتى تصبح ناطقا باسم جهاز الدولة . من هنا جاء العنوان الفرعي لكتابي : "
فرنسا وأديانها للدولة "

أعترف ، في البداية صعب علي فهم هذا النظام . يجب بالفعل تعليق جميع الأفكار التي لدينا حول العلمانية
، حتى نتصور الياتها .

للهولة الأولى ، يبدو الأمر سريالي : الحجج العلمانية هي تقريبا ، جميعها دينية ، الأفعال العلمانية تعتمد
أكثر علما داخل الدين في الحياة العامة مثلا : في المدرسة العمومية .

مع ، ذلك العلمانية تقدم نفسها على أنها فصل للدين عن السياسة ! لكن بقدر ما نتعمق في المشكلة ،
نتأكد بأنفسنا بأن هنا تكمن الفعالية القصوى (كذلك الطابع العبيثي) لهذا النظام : بديهية عدم تدخل الدولة
، وهم الفصل ، الحيادية ، هذه الأمور غير واضحة بقدر وضوح المراقبة الدينية ، التدخل الفعلي في الدين ،
التمييز الديني ، لا يمكن أن يكون هذا موجهها ، حقيقة ، لما هم عليه ، وحتى لضحاياه . هذا ما يدفع إلى أن
أي شخص لا يفكر حتى في طرح النظام نفسه للمناقشة ، لكن فقط تطبيقه جيدا وبكل وضوح ...

التمييزات ، هي في كل مرة يفكر فيها الضحايا أنفسهم ، من طرف المسلمين مثلا : على أنهم منحرفين
بسطاء ، في حين أنهم ليسوا منحرفوا النظام ، لكن يشكلون الموضوع لهذا النظام : تمييز بحسب مصالح
الثقافة المهيمنة . الثقافة المهيمنة التي لا تظهر على أنها مهيمنة ، ما دام تدعي أنها عالمية ، حيادية ، بدون
خلفية دينية . وبالتالي لم تتحمل مسؤولية أفعالها وتمييزاتها . هذا ، بأم عيني الإستثناء الفرنسي .

*هل يمكن أن نتحدث بفرنسا عن انبثاق " علمانية صراعية " انطلاقا من سنوات 1980؟

لنقل انطلاقا من سنوات 1980، العلمانية أصبحت على العموم بديهية مقبولة ، في حين لا أحد يعرف مضمونها . أو بالأحرى ، كل شخص يعطيها المضمون الذي يناسب مصالحه . في هذا الوقت كنا نتحدث عن علمانية مفتوحة ، مغلقة ، صراعية ، ليبرالية ، اشتراكية بالفعل ، في نفس الوقت تبلور شك حولها بخلاف الأديان الوضعية الصغيرة، ولكن أيضا بالخلاف مع الإسلام على وجه الخصوص . يجب أن نقول بأننا في ذلك الوقت ، في قلب الأزمة الاقتصادية التي تتميز بالبطالة الدائمة ، أزمة البترول ، تقلص القدرة الشرائية .

في نفس الوقت ، الفرنسيين يدركون أن المجموعات الإسلامية التي أساسا ذات أصل مغاربي لا ينتقلون في المدن المهمشة ، لكن بالعكس يتمركزون في المناطق الحضرية ، وبالتالي أطفالهم فرنسيون أو سيصبحون فرنسيون . أظن أن هذه المواطنة هي التي غير مقبولة أكثر. كما لا يمكن القول -هذا ليس صحيحا سياسيا - بأننا لا نتحمل المواطنة الممنوحة للعرب ، بتعبئة مبدأ العلمانية ، ولا نتكلم عنها إلا حين يتعلق الأمر بالإسلام .

السؤال يتحول إذن إلى : هل الإسلام يتوافق مع العلمانية ؟ السؤال يفترض ضمنا جوابا سلبيا ، اختصارا مع صورة دونية المرأة ، شبح حرب الحضارات ، تعارض القيم الخ الحمولة السلبية للإسلام تسمح بتبرير الرفض الأعمى للمواطنة الفرنسية للمغاربيين ، المضمون من طرف النخب الجمهورية ، رفض يتخفون عبره للبحث المجرد عن علمانية عالمية . فقط في نفس الوقت ، (سنوات 1980) نفس هؤلاء المغاربة ، الفرنسيين ولادة ، قرروا ألا يخضعوا لنظام الأقلية المرئية ، لكن بالعكس المطالبة بمواطنة كاملة . رأينا ظهور ثقافة المهجر (beur) -المغاربة المولودين بفرنسا - الموسيقى ، الفن ، التعبير ، وكذلك أيضا إعادة التكيف مع الإسلام ، وتقويم جديد له لدى الشباب .

الصراع العلماني ضد "الظلامية الإسلامية" بدأ انطلاقا من سنوات 1980، والذي هيجه أكثر الموقف "اللامتسامح" للمغاربة الرافضين للخضوع والذين لا يترددون في إظهاره عيانا . انطلاقا من هنا ، الدولة العلمانية تساهم في عملية الخضوع . كل الأمور مسموح بها لهذا الغرض ، من قوانين تحد من المساواة ، نفاق التمييز الإيجابي ، تأسيس هيئة ممثلة لمسلمين بفرنسا تسمح بتعويض سياسة مراقبة الإسلام ، إلخ

*هل مسألة الحجاب توحى لك بثقافة علمانية مهيمنة ؟

الثقافة المهيمنة هي تلك التي تسود الخريطة الاجتماعية ، مثل لون سائد في لوحة. في لوحة يسود فيها الأزرق : سيكون الأزرق المركزي ، العميق ، أزرق فرنسا ، ثم الأزرق الفيروزي ، أزرق السماء إلخ .بعجالة مجموعة من الألوان تأتي في رتبة أقل من الأزرق العميق المركزي .

الثقافة المهيمنة مثل لون ، تأتيه الألوان الأخرى في رتبة أقل منه .هذا يعني أن هناك ذوق مركزي ، يفرض على المجتمع ، وكل الناس أحيانا لاشعوريا ، يحاولون تقليده ، بدون فهمه تماما ، في اللباس ، في أسلوب العمران ، إلخ

استعارة اللون تسمح بإظهار أن المهيمنة هي كذلك ويمكن في البداية أن تكون هيمنة جمالية للذوق الجيد، الذي هو الطابع الأساسي للموقع السوسيو -الاقتصادي .

العلمانية تبحث قبل كل شيء عن فرض ذوق جيد ، تحاول فرض لون مهيمن ، الذي على أي شخص تقليده بحكمة. تدعي أن الأمر يتعلق بقيم ، بديمقراطية ، بمساواة ، للتغطية على عبثية ما تفرضه ، مع ذلك ، المسلمون الفرنسيون هم كذلك يرغبون في الحرية ، الديمقراطية ، المساواة إلخ ، مثل أي مواطن فرنسي . فقط أن ترفض تقليد اللباس الفرنسي للطبقة المتوسطة وعدم التشبه به ، يظهر تمردا على الثقافة المهيمنة .

هذا يعني ، حينما نرفض تقليد النموذج الفرنسي والتشبه به ، وأن لا نكون فقط منتوجا مشتقا للثقافة المهيمنة : فعدم التشبه بالنموذج المهيمن يعني أن هذا الأخير غير محبوب ، وليس نموذجا يحتذى به ، وغير مرغوبا فيه .

في هذه الحالة ، الثقافة المهيمنة تعمل كذلك لأنها مرغوبة من طرف المهيمن عليهم (بفتح الميم) . بحمل الحجاب ، نطالب بهذه الجمالية " الأصيلة " ، المسلمون بمسحة جمالية يرفضون اتباع النموذج المهيمن للذوق الجيد ، .

المسلمون ، بطريقة جذرية يطرحون للنقاش النموذج الثقافي المهيمن . الثقافة المهيمنة لا تتحمل ، منذ ذلك الوقت ، أن لا تكون مرغوبة وأن لا يحتذى بها ، ألا يمكن اعتبار هؤلاء الفتيات مثل إحدى مقهوريتها . يمكن اعتبار حمل الحجاب كذلك، بوعي أو بدونه ، مهما كان قليلا ، مثل مطالبة صريحة بالمواطنة الكاملة ، الغير الناقصة .

نعم ، أظن أن رفض الحجاب هو أكثر من مسألة أسلوب عيش ، مسألة رفض أسلوب عيش الذي أعطى لنفسه الإستقلالية ، لا يبحث عن مرجعياته خارجا ، بقدر ما يبحث عنها داخله ، من مسألة قيم ، حضارة أو أخرى .

الأطروحة القائلة بعدم توافق الاسلام مع القيم الديمقراطية ، ليست إلا تبريرا . حتى بذل الجهد في توضيح أن، الإسلام متوافق مع الديمقراطية ، فهذا الأمر لصالح العلمانية بفرنسا .

الإسلام ليس له ما يوضحه ! حتى بشرح أن بواسطة الثقافة الإسلامية عرفت أوروبا فلسفة أرسطو ، هذا لا يفيد شيئا في مواجهة الأفكار الواردة ؛ ليس فقط غير مفيد ولكن هذا يستلزم إخبارا بالشرح ، بأن هناك ما يمكن شرحه ، وتوضيحه ، عليه تقديم كل الضمانات ، حينما نكون مسلمين .

لن نرجع حتى إلى غموض كلمة الإدماج. حينما تدعي العلمانية أنها تبحث عن إدماج الأقليات ، هذا لا يعني بأنها تسمح بالإرتقاء الإجتماعي والإقتصادي للأقليات ذات الأصل المغاربي ، ولكن تريد أن تخضعها للنموذج الثقافي المهيمن، بعبارة أخرى أن يقبلوا مواطنة ناقصة من الدرجة الثانية ، دائما متعلقون بإعجاب للنموذج الثقافي المهيمن .

المسلمون حينما يشكلون مرجعياتهم الذاتية ، مثلا عبر رموز إسلامية ، فإنهم بذلك يسائلون النموذج الفرنسي المفروض عليهم .

إذا كنا نريد هؤلاء "الفتيات" الاندماج الإقتصادي والإجتماعي ، إذن لا يجب نقد الحجاب ، ما دام الفتيات المحجبات إحصائيا ، مجتهدات في أقسامهن !

الخوف الكبير الذي يسيطر على عقول أصحاب الثقافة المهيمنة هو فقط الاندماج الإقتصادي والإجتماعي لهذه الأقليات ، خاصة إذا كانت هذه الأقليات تبرز في نجاحها الإقتصادي والإجتماعي اختلافاً جمالياً وأذواقها الفريدة ، وأسلوب عيشها المختلف.

العنصرية بعيدة أن تكون فقط ، مسألة لون جسد ، بل هي مسألة جمالية ، بعبارة أخرى حكم ذوق محدد اجتماعيا .

* مقطع من كتابك يذهب حتى الحديث عن خضوع المسلمين لعنف علماني ؟

العنف الرمزي هو ذلك العنف الذي يركز على فرض فكر وحيد على الآخرين ، لا ينتمون له . مثلا ، في حالة الحجاب ، فأغلبية الفتيات المحجبات قادرات على شرح أسباب ارتدائهن الحجاب .

لكن كما أننا لا يمكن أن نمنعهن رسميا من لباسهن ، إذا كان بإرادتهن الحرة ، فإننا نلجأ إلى التخفي وراء فكرة أن الحجاب مفروض عليهن .

إذا كن هؤلاء الفتيات يحاولن إعطاء الأسباب لحملهن الحجاب ، نعلم إلى شرح أنهن مخدوعات ، حتى رغبتهن في الشرح تعني أنهن مخدوعات حتى النخاع ، إلى حد أنه من غير المتصور الرغبة في حمل رمز مرفوض كثيرا . هذا هو العنف الرمزي .

الآن بالفعل ، جزء كبير من المسلمين يخضعون لهذا العنف ، حيثما ينتهون إلى القبول بالإسلام الذي يحدد معناه من الخارج ، أو ما هو غير " الإسلام الأصيل " .

أستطيع توضيح ، مثلا أن في استطلاع IFOP حول رأي المسلمين الفرنسيين في الحجاب ، نتائج أجوبة الإستطلاع غير متجانسة ، إلا إذا افترضنا خضوع ما للمعنى المفروض من الخارج . بالفعل ، حسب الإستطلاع أغلبية المسلمات موافقات على قانون منع ارتداء الحجاب بالمدرسة ، لكن في سؤال آخر بالإستطلاع ، هن متفقات بأكثرية ساحقة على أن الحجاب ليس مفروضا على الفتيات المحجبات . إذن السبب الوحيد الممكن تصوره لمنع الحجاب بالمدرسة هو منعه أن يكون مفروضا .

هؤلاء النساء مقتنعات بأنه لا يمكن أن يكون مفروضا ، لكن يجدن مع ذلك أن يكون ممنوعا ! ! هذا بالكامل غير متجانس ، إلا إذا اعتقدنا بأنهن خاضعات للنموذج الثقافي المهيمن ، لأنهن يعرفن مسبقا بأنه مستحيل ، تحت طائلة الأصولية القول بأنه ليس هناك سبب لمنع الحجاب بالمدرسة .. إذن يحاولن تقديم كل الضمانات ، بطريقة غير مباشرة القول بأنهن غير أصوليات بالإخراط في قانون يعرفن مع ذلك أنه من الأفضل غير صالح للعنصري السخيف ! هذا الخضوع للعنف العلماني هو في كل مكان مطلوب ، مثلا حين هدد جاك شيراك في عبارات تلميحية اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا بالانتقام في حالة انتقاد قانون الرموز الدينية . مثل جمعية مكونة من أفراد مستقلين لا يمكنها نقد قانون ! لكن على هؤلاء المواطنين تقديم كل الضمانات للاستفادة من مواظنتهم ، عليهم الخضوع للنموذج الثقافي المهيمن !

* من هم المسلمون الذين تبوذوا (تشبهوا بالبوذية) المذكورين في كتابك ؟

البوذيون إلى حد ما ، وبصفة عامة ، عكس المسلمين في المجتمع الفرنسي . البوذيون يشكلون أقلية دينية ، لكن البوذية ليست دين أقلية اجتماعية ، عرقية أو أخرى ، بالعكس هم فرنسيون من الطبقة المتوسطة والراقية ، بدون مرجعيات إثنية ، تاريخية ، خاصة . إنهم كذلك ، نقول طبيعيا مهيمنون في ثقافتهم ، حتى في مستواهم الإقتصادي ، في مطالبتهم بالرفاه ، بالتطور الشخصي إلخ.

في هذا الحال ، أريد أن أشير أن، حينما المسلمون، بما فيهم الفرنسيين ذوو الأصل المغاربي ، يحتلون مواقع سوسيو -اقتصادية قوية : (محامون ، دكاترة .) فإنهم يتجهون إلى تطوير تصورهم للإسلام مثلا ، نحو الصوفية الجديدة،هذا يعني نحو تأويل ما بعد حدائي للصوفية الإسلامية التي اعتادت كثيرا على أفكار " التطور الذاتي " ، البحث عن " الإنفتاح الباطني " ، " السعادة " إلخ

هذه الحالة،تبين حتى الاختلافات التي ترعب العلمانيين المهيمنين تنمحي حينما يتبرز الإسلام (يصبح برجوازيا) . ليس هناك تعارض جوهري للقيم بين الإسلام ولا أعرف ماذا لكن اختلافات مواقع اجتماعية ، وظروف اقتصادية المتقاطعة مع الاختلافات الهوياتية الخاضعة أو المطالب بها .

* العلمانية الأنكلوسكسونية أليست أكثر انفتاحا على الإسلام من العلمانية الفرنسية الراغبة في العالمية ؟

بلد مثل ابريطانيا ، الذي مع ذلك لا يقول رسميا بأنه علماني ، لكن انكليكاني ، يبدو أنه بالفعل أكثر علمانية من فرنسا . ليس في هذا البلد 36 نوعا من الجمعيات ، وليس هناك أي رفض أو قبول لأية جمعية لأسباب دينية .

في ابريطانيا ، توجد جمعيات عادية مثل ما هو موجود بفرنسا ، بجانبها جمعيات إحسانية ، تتناسب إلى حد ما مع جمعياتنا ذات المصلحة العامة ، ولا شيء اخر ، ليست هناك جمعيات الرهبنة (دينية) ، أسقفيات ، أو أخرى . بطبيعة الحال ، هناك عدد كبير من الأديان التي تستفيد من نظام "الجمعيات الإحسانية"لكن فقط هذا راجع إلى عملها الإحساني ، وليس راجع في حد ذاتها أنها دينية .

بالفعل ، بابريطانيا لا يسمح بمنع ارتداء لباس بالمدرسة تحت ذريعة أنه ديني ، سواء أكان إسلاميا أو لا .
في أغلبية المدارس ، لباس موحد مفروض على الجميع ، بالتمييز ... هذا لا يعني غياب العنصرية ، التمييز
بابريطانيا ، لكن فقط هنا الدولة تضع حواجزا ، وتفرض حدودا للتمييز
، في حين بفرنسا ، تحت غطاء العلمانية الصارمة ، وخطاب الإدماج ، الدولة هي نفسها تنظم التمييز بدون
أن تشعر بأي ندم .

ترجمة : علوش نورالدين

¹ <http://oumma.com/Raphael-Liogier-L-Etat-organise>